

وجبة السردين !

من أعجب مظاهر الحياة الحيوانية التى تحدث فى الطبيعة، وتحمل للإنسان دلالات هامة بعضها سياسي وبعضها أخلاقى تلك الوجبة المضمخة من السردين الذى يتكاثر فى البحار الواسعة والمحيطات، ويبلغ مرحلة يحين فيها صيده من جانب عدة أفواه مفترسة من بينها الإنسان!

وتتمثل مشكلة السردين فى أنه سمكة ضعيفة، لذلك فإنها تتجمع فى مجموعات هائلة ، ظنا منها أنها بهذا المتجمع تكون أقوى، وتحمى نفسها من الأعداء..

وبالمطبع ما أشرس أعداء البحر! وأول هؤلاء الأعداء وهى "الدلافين" التى تجد فى السردين وجبة لذيذة جدا، وتنتظر تجمعاتها فى موسم محدد، ثم تقوم بدفعها إلى المكان الذى تستطيع التهامها فيه، وتظل بحركاتها المعهودة ترقص بجانبها، وتستدير حولها، ثم تدخل فى عمقها وتفتنص ما تستطيع استيعابه منها . وكل ذلك يحدث فى حركات سريعة وانسيابية.

لكن "الحيتان: وهى فى الأصل من أكبر أعداء الدلافين ما تلبث أن تشم رائحة الموليمة ، فتسرع بالاشتراك فيها بنفس القدرة والمهارة.

وهنا يظهر وضع عجيب: وهو أن الحيتان التى تتناول وجبتها الدسمة من الدلافين، لا تلقى لها بالاً فى تلك الحالة، بل إنها تتكاتف معها، أحدهما من الأعلى والآخر من الأسفل لكى يحظى بنصيبه من السردين ، بل من الأعجب أن "عجول البحر" المضخمة لا تتردد هى الأخرى فى الاشتراك بالموليمة، غير عابئة بأنياب الحيتان التى تنغرس عادة فى لحومها المكنزة !

وهكذا يشترك ثلاثة أعداء فى وقت واحد فى التهام السردين المسكين، الذى لا يجد له مهرباً سوى الاقتراب من الشواطئ، فماذا يجد هناك ؟ يجد "الإنسان" قد أعد له الشباك الكبير لكى ينتشله من الماء إلى الأقفاص ، ومنها إلى السوق!!

ومع ذلك فإن هناك طرفاً خامساً، يهبط من الجو بسرعة مائة كيلو فى الساعة ، وهى تلك "الطيور" التى تعودت أن تغوص فى الماء على بعد ثلاثين متراً ثم تلتقط فى منقارها سردينه وتصعد بها للهواء.

إذن فقد أصبح لدينا خمسة أعداء، عادة ما يتربص كل منهم بالآخر معظم الوقت، لكنهم تركوا عداوتهم مؤقتا لكي يحصلوا على تلك الوجبة المشهية من السردين. ومن نعمة الله أن السردين متوافر بأعداد هائلة، بحيث يكفى الجميع. فهل يمكن للإنسان أن يفكر جيدا في دلالات هذا المشهد، وأن يستخلص منه الأبعاد السياسية والأخلاقية التي قد تساعده في اتخاذ القرار الصائب في مختلف المواقف الصعبة التي يتعرض لها. ومن أهم تلك الدلالات أن المضعف إذا تحالف مع ضعيف مثله لن ينتج عنهما إلّا ضعيف مركب، وأن الأعداء قد يتغاضون عن عداوتهم مؤقتا من أجل تحقيق مصلحة سريعة ومباشرة لكل منهم، وأخيرا فإن نظام العالم قائم على "المدافعة" التي لا بقاء فيها إلّا للأقوى!